

نبذة في تاريخ رسم المصاحف

كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المنصور له حنفي بك ناصف بصحيح الاغلاط الاملائية التي وقعت في رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف وابتاع فورا عدة خزمة بالاملاء الذي كتب به في خلافة عثمان بن عفان . وقد صحح وفقاً لهذه القواعد نحو مائتي غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد بقاء خالياً من الخطا . وقد وضع حنفي بك كتاباً في قواعد رسم المصحف . ولكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة سرد فيها تاريخ رسم المصاحف قرأنا ان ننشرها

جاء في حديث عائشة وفاطمة رضي الله عنهما ان جبريل عليه السلام كان يعارض النبي (يقرأ والآخر يقابل عليه) صلى الله عليه وسلم القرآن في كل سنة في شهر رمضان مرة واحدة ، وفي السنة الاخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحسن النبي صلى الله عليه وسلم بشو اجده . وقد كتب القرآن بعد العرصة الاخيرة زيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو الدرداء ومعاذ وغيرهم من اكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ولكن الوحي لم يتقطع حتى قبض عليه الصلاة والسلام ، فألحق الكاتبون ما نزل أخيراً بما عندهم . ولما ولي أبو بكر الخلافة ارتد من ارتد من العرب ، وادعى مبلغة النبوة في البياضة وتبعه بنو حنيفة ، فأرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد لقتالهم مع عصابة من المسلمين فاستحرق القتلى في القراء ومات منهم ٧٠٠ رجل ، فغشي عمر رضي الله عنه أن يستحرق القتال في المواطن كلها وينهب بالباقيين من القراء ، فيذهب بندها بهم قرآن كثير ، فأشار على أبي بكر ان يأمر بجمع القرآن كله في صحف لتكون مرجعاً للمسلمين

فأرسل أبو بكر زيد بن ثابت ، وقال له : إنك رجل شاب طاق لا تسهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن لتجمله فان زيد : جملت اتتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقوع والاضلاع ومن العصب (فحرف السبع) حتى جمعت . قال فنقدت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الانصار : وهي : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر » فألحقتها في صورتها ، ثم فقلت آية اخرى فاستعرضت المهاجرين والانصار أسألهم : فوجدتها عند خزيمه بن ثابت : وهي : « لقد جاءكم رسول الى آخر السورة ، فألحقتها في آخر السورة » ، ثم عرضته على نفسي عرضة ثالثة فلم أجده فيه شيئاً .

ومعنى أنه لم يجد الآية أنه لم يجدها عنده مكتوبة فيما سبق أن كتبه في حياة النبي (ص) مع كونه يحفظها ، « ومعنى وجدها عند الانصاري » أنه وجدها مكتوبة لأن زيدا كان يسه أن يطلع على الكتابة لأنه كان فيها علامة مخصوصة تدل على أوجه القراءة التي اذنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأها وفود القبائل من العرب من فك وإدغام وإمالة وتفخيم وإشمام ومد وفصر وتغليظ وتزيق ، قال عليه الصلاة والسلام : ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فآثروا ما تيسر منه . قيل انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبني تميم وضبة وقيس ، وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة وسلت لغاتهم من الدخول . وبذلك تم جمع القرآن كله في المصحف مشتملا على الاحرف السبعة . وبقيت تلك المصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند ابنته حفصة زوج النبي

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قدم عليه حذيفة بن اليمان قزعا ، وكان قد سار مع جيش المسلمين للقتال على فرج أرميلية ، وقال : يا أمير المؤمنين إني سمعت الناس يختلفوا في القراءة حتى والله إني لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف ، فاستصانعا — إذا قيل هذه قراءة فلان وقراءة فلان كما منع أهل الكتاب — فاصنعه الآن . وكان قد بلغ الخليفة عثمان أن المعلمين في المسجد يختلفون في القراءة ويقول أحدهم قراءتي خير من قراءتك وأبي دويت قراءتي عن فلان عن النبي (ص) وإنما دون ال حد المناقشة ولا يسلم أحدهم بقراءة الآخر ، فجمع عثمان الناس وكانوا يومئذ اثني عشر ألفا وقال لهم : بلغني أن بعضهم يقول قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرآ . قالوا فما ترى ؟ قال ، أرى أن يجتمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فيه فرقة واختلاف . قالوا فنعم ما رأيت

فأرسل من فورهِ الى حفصة ان ارسلي الينا بالمصحف فننسخها في المصاحف ثم ردها اليك . فأرسلت اليه المصحف . وأرسل هو الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاصي وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام ، وقال لهم انسخوا هذه المصحف في مصحف واحد ، وقال للنفر القرشيين : إن اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فأكتبوه على لسان قريش فلما نزل بلسانهم فصدعوا بأمر الخليفة واخرجوا الناس اربعة مصاحف مكتوبة كلها بخط زيد واملاء القرشيين وليس فيها أي علامة من العلامات التي كانت في المصحف قبل : تدل على الاحرف السبعة ، فأرسل منها مصحفاً الى الكوفة وآخر الى البصرة وآخر الى الشام وأمسك عند نفسه واحداً ، وأمر بتعريق كل المصحف والمصاحف التي كانت من قبل . وقد أقر على ذلك الصحابي رضوان الله عليهم ، حتى قال علي كرم الله وجهه : « لو وليت فعلت في المصحف ، الذي فعل عثمان » وقد امر بعد ذلك بكتابة مصحف لأهل المدينة وآخر لأهل مكة وآخر لأهل البحرين

وآخر لأهل اليمن

وقد نقل الجعبري عن أبي علي ، أن عثمان أمر زيد بن ثابت أن يُقرئهم بالمدني ، ويبتعد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي وأبا عبد الرحمن الصلبي مع الكوفي وعامر بن عبد قيس مع البصري ، ولم يعرف من بعث مع الجعبري ، ولا البحراني ، ولهذا انحصر الأئمة الخمسة في السبعة الأمصار

قال الجعبري : والاعتماد في نقل القرآن على الحفظ ، ولهذا تقدم إلى اقتطاع الإسلام للتعليم ، وجعل هذه المصاحف أصولاً نوانية حرصاً على الاتقاد ، ومن ثم أرسل إلى كل إقليم المصحف الموافق لقراءة قارئه في الأكثر

وينهم من كلام الجعبري أن بين المصاحف الستة شيئاً من الاختلاف في الرسم وهو صحيح ، ولم يكن غرض عثمان رضي الله عنه منع الناس من تراءة القراءات المروية بالتراوير وحملهم على الانتصار على لغة قريش وتضييق ما وسعه الله على عباده من الاذن لئيبه بأن يقرئهم على الاحرف السبعة تسهيلاً لهم ورحمة بهم ، بل غرضه الضرب على أيدي من يتشبث بما وصل إليه ويحجر على الناس القراءة بما وصل إليهم ويقول فراكتي صواب وقراءة غيري خطأ ووضع حد ثابت لقبول الروايات ، فكل رواية لا تنطبق على مرسوم المصاحف الصمانية يضرب بها عرض الحائط ولا يجوز القراءة بها ، ولذلك قال ابو محمد سكي : لقد سقط العمل بالقراءات التي تخالف خط المصحف فحفظها منسوخة بالاجماع على خط مصاحف عثمان . اهـ . ولو كان عثمان أمر باتساع حرف واحد لما جاز لنا أن نخالفه ، فان عرفنا عيب أخذنا به وان لم نعرفه اقتضت قاعدة اجتماع الخطر والاباحة عدم جواز القراءة بأي حرف كان إذ لا حرف الا وهو محتمل أن يكون غير مراده ، فهو محتمل للضعف

وما ظهرت هذه المصاحف الا وقد تناظر الناس عليها نسخها كما هي من غير تغيير في شيء حتى الحروف المخالفة لاصول الرسم القياسي

وكانت الكتابة في ذلك العصر خلواً من نقط الاعجام ومن الشكل بأي طريقة كانت ، فكانت مصاحف عثمان كذلك ، وكان المرجع في القراءة إلى القارئين الذين اتفقوا إلى الامصار ومن تلقى عنهم

واول من وضع الشكل أبو الاسود الدؤلي بطلب زيد بن سمية حامل معاوية ، فوضعه قطعاً حراً ففرق الحروف وتحتها وعلى يمينها

واول من وضع نقط الاعجام نصر بن ماصم اللبثي مستعيناً باستاذه يحيى بن يعمر المدواني بطلب الحجاج حامل عبد الملك بن مروان

واول من غير النقط الحمر إلى الحروف الصغيرة الخليل بن احمد التراهميدي بعد اقتراض دولة الامويين

ومن هذا تعلم أن مصاحف عثمان كانت صالحة لأن تقرأ على أوجه شتى حسب ما يحتملها
رسماً، فكأن الرواية هي المختصة لبعض هذه الأوجه دون بعض . وبسبب تعدد الروايات
تعددت القراءات

وأجمع المفسرون من الصحابة والتابعين وعلماء الامصار على ان كل رواية متواترة
صحيحة السند ، يُقرأ بها متى كان لها وجه في العربية وكان رسم اي مصحف من المصاحف
العثمانية يحتملها

ومن هذا يعلم ان المحافظة على رسوم المصاحف العثمانية امر واجب لمعرفة القراءة المقبولة
والمردودة لأن هذه الرسوم كانت اصلاً من اصول القراءة ودعامة من دعائم الدين الاسلامي
وفي هذه المحافظة ايضاً احتياط شديد لبقاء القرآن على اصله لفظاً وكتابة فلا يفتح فيه
باب الاستحسان لأنه اذا فتح الاستحسان في الرسم فقد لا يلبث ان يفتح في اللفظ، ويتطرق
اليه التغيير والتبديل ، فدوا هذا الباب بابقاء كل شيء على اصله حتى ما هو مخالف للمألوف
الرسم المعتاد . وقد مثل مالك هل يكتب المصحف على ما احدهم الناس من الهجاء فقال لا .
إلا على الكسبة الاولى

وما ذهب اليه مالك ، ذهب اليه جميع الأئمة المجتهدين وانعقد عليه اجماع علماء المسلمين
في مشارق الارض ومغاربها ، واسمح من الامور التي فرغ منها وانتهى الامر فيها
ولا نعلم ان احداً من العلماء تحكك في هذا الامر الا ابن خلدون في القرن الثامن وبعض
رجال الازهر في القرن الرابع عشر . وليس احد منهما اماماً مجتهداً ، والحمد لله

قال الاول ما مضاه ان الصحابة لم تكن استحكمت فيهم اجادة صناعة الخط فأخطئوا في
مواضع من رسم القرآن وتاليهم على هذا الخطأ من بعدهم تبركاً بأصحاب رسول الله وتكلفوا
لصنوب هذا تعليقات وحكما لم تحظر في بال الصحابة

وقال الآخرون : لو كتبنا القرآن بخطنا المستعمل الآن دون تلك المخالفة خرجنا من
العهد وقتنا بالامر احسن القيام كمن كلف شيئاً ففعل خيراً منه ، لانك تدعوت ان الخط الحاضر
احسن مما كان عليه من الطريقة القديمة التي كانت في زمن الصحابة . اهـ

وقد غفلوا جميعاً عن السببين الجوهريين اللذين لاجلهما انعقد الاجماع ، وهما ان الرسم
التقديم واجب المعرفة لقبول ما يقبل من روايات القرآن ورفض ما يرفض منها وسد باب
الاستحسان مبالغة في التحفظ على القرآن ، فهم قد حفظوا شيئاً وقابت عنهم اشياء

ولا يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء ان يذهب غيرهم الى استحسان كتب المصاحف
بالحروف اللاتينية وآخرون الى اختصاره وآخرون الى ارجاعه للغة العامية ليحتمل نفعه الى غير
نك من الرذاعات والخرفه . وماذا يبعد الحق الا الضلال ؟